نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم

بقلم الدكتور محمد عبد الله دراز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

* * *

خير ما تفتتح به الأعمال، وتستنجح به المقاصد، التوجه إلى الله العلي القدير، ثناء عليه بما هو أهله، واستعداداً للمعونة من قوته، واستلهاماً للرشد من هدايته . . . وتلك هي الخطوط البارزة في سورة الفاتحة «الحمد لله رب العالمين» ثناء على الله . . . . «إياك نعبد وإياك نستعين» استعانة بالله . . . «اهدنا الصراط المستقيم» استرشاد بنور الله .

عند هذه النظرة العابرة يقف أكثر الذين يتلون هذه السورة، أو الذين يستمعون إليها، ولعل كثيراً منهم لا يدركون من تسميتها بالفاتحة إلا أنها تحل المكان الأول في صدر المصحف .

ولكن هلم بنا نلق على هذه السورة الكريمة نظرتين أخريين : نظرة في موادها ومقاصدها، مقارنة بمواد القرآن ومقاصده؛ ونظرة في وجهة خطابها، مقارنة بوجهة الخطاب القرآني . وسنجد لها بذلك شأناً أهم وأعظم .

ولنبدأ بالنظر في إحصاء المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وفي مدى احتواء الفاتحة على هذه المقاصد .

فالشئون التي تناولها القرآن، على تنوعها وكثرتها، نستطيع أن نجملها في أربعة مقاصد، هي في الحقيقة كل مطالب الدين والفلسفة والأخلاق، مقصدان نظريان : هما معرفة الحق، ومعرفة الخير . ومقصدان عمليان تثمرهما هاتان المعرفتان إذا قدر لهما أن تثمرا؛ فثمرة معرفة الحق هي تقديس الحق واعتناقه، وثمرة معرفة الخير هي فعل الخير والتزامه .

فالقصد النظري الأساسي للقرآن الحكيم هو تعريفنا بالحقيقة العليا، صعوداً بنا إليها على معراج من الحقائق الأخرى . فهو يعرفنا بالله وصفاته عن طريق توجيه أنظارنا إلى آياته في ملكوت السموات والأرض : في خلق الإنسان والحيوان والنبات، في سير الشمس والقمر والنجوم، في تكوين السحاب، في تسخير الطير، في تصريف الرياح، في ظاهرتي الحياة والموت، وفي سائر الظواهر النفسية والكونية الخارجة عن إرادتنا، وعن إرادة الكائنات كلها، والتي لا يستطيع العقل السليم أن يفسر وجودها، ولا بقاءها ولا تناسقها وتماسكها ووحدة نظامها، إلا بوجود قوة عاقلة قديرة مدبرة حكيمة، تقبض على زمام الأمر كله، وتوجه العالم كله على هذا النحو الموحد المعين، المختلف المؤتلف دون ملايين الملايين من الأوضاع الممكنة التي لا بد لها من أن تتناوب على الكون في كل لحظة لو ترك أمره لمحض المصادفة والاتفاق، أو لو ترك أمره لقوة عمياء صماء طائشة، لا عقل لها، أو لقوة مخربة مدمرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

باطشة لا رحمة لها ، أو لقوّة عابثة لاهية لاعبة لا هدف لها .

والقرآن حين يرينا صنع الله فى ملكوته لا يقف بنا عند هذه اللوحة العالمية فى صورتها الحاضرة ، ولكنه يوجّه نظرنا إلى طرفى الزمان الكونى ، فيطلّ بنا على صورة العالم فى ماضيه وفى مستقبله ، فى بدايته وفى نهايته ، كما يوجه نظرنا إلى طرفى الزمان الإنسانى ، فيرينا صورة من صنيع الله فى الأفراد والأمم : فى ماضيها وفى مستقبلها القريب والبعيد ، فى إسعادها وإشقائها ، فى إبقائها وإفنائها ، فى مثوبتها وعقوبتها .

هذه النظرة الشاملة إلى صنع الله فى الأنفس والآفاق ، وهذه المعرفة بالله فى مظهرىْ عدله وفضله ، فى صفتىْ جلاله وجماله إذا وقعت موقعها من النفس تقاضتها حتماً أن تتخذ لها موقفاً عمليًّا تجاه هذه الحقيقة المقدسة العليا . وما ذلك إلا موقف التوقير والخشوع أمام هذا العدل والجلال ، وموقف الولاء والحب أمام هذا الفضل والجمال . فمن عرف الله خشعت له نفسه ، واطمأنّ له قلبه . وذلك هو روح العبادة وجوهرها ، الخشوع التام عن طوع واختيار ، وعن رضى ومحبة .

فإذا كان هذا الأصل النظرى الأول ، هو معرفة الله ، فالأصل العملى الأول الذى يثمره هذا الأصل ، هو توقير الله . ومن جملة هذين الأصلين يتألف الجانب الإلهى بعنصريه النظرى والعملى . . . والقرآن يفصّله تفصيلا ، وسورة الفاتحة تجمله إجمالا فى شطرها الأول : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » ، وهذه هى المعرفة الأساسية . « إياك نعبد وإياك نستعين » ، وهذا هو الموقف العملى الذى تثمره تلك المعرفة .

وقبل أن ننتقل إلى الجانب الإنسانى ، الذى يتناوله الشطر الثانى من السورة ، يجمل بنا أن نقف وقفة يسيرة أمام هذه الحبّات الدرّية التى يتألف منها هذا الجناح الأول من السورة لكى نمتع عقولنا وقلوبنا بتذوق معانيها ، واجتلاء جمال مواقعها . ولنبدأ بهذه الصفات الحسنى :

« ربّ العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين »

شذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاثة ، فى ترتيب بالغ الغاية فى الإبداع والإحكام : المبدأ ، فالواسطة ، فالمعاد . . . التوحيد ، فالنبوة ، فالجزاء . . .

« ربّ العالمين » : ليس إله قبيلة أو شعب ، ليس إله خير أو شر ، أو إله نور أو ظلام فحسب ، ولكنه ربُّ كل شىء : بارئه ومصوّره ، منقّله فى أطواره ، مبلّغه غايته ، ممدُّه بحاجاته ، مبتليه أو معافيه . وبالجملة مربى كل شىء بأنواع التربية الظاهرة والباطنة . هذا هو التوحيد الخالص ، وهذا هو ركن المبدأ . « الرحمن الرحيم » ليس رحماناً رحيما فحسب ، ولكنه هو الرحمن الرحيم . ليس واحداً من جملة الراحمين ولكنه هو المصدر الوحيد للرحمة . ثم هو ليس ذا رحمة واحدة ، ولكنهما رحمتان مفسرتان فى القرآن : رحمة وسعت كل شىء ، ورحمة يختص بها من يشاء ؛ فالرحمة الأولى وسعت الإنسانية جميعها ، لا أقول وسعتها بنعمة الوجود والحياة والرزق المادّىّ فحسب ، ولا أقول وسعتها بنعمة الهداية الفطرية وكفى ، ولكن بنعمة الهداية السماوية نفسها وذلك بإرسال الرسل إلى كل الأمم : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا » « وإنْ من أمة إلا خلا فيها نذير » هذه هى الرحمة الأولى ؛ الرحمة الأساسية العامة ، التى هو بها « رحمن » ممتلىء الخزائن بالرحمة ، باسط اليدين بالنعمة « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها » .

ورحمة أخرى خصوصية ، إضافية ، علاوة يمنحها لمن يستحقها ، تلك هى رحمة الاصطفاء والاجتباء ، والقيادة والإمامة والتوفيق والرشاد ، والمزيد من الفضل : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » ، « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، « الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » ، « والذين اهتدوا زادهم هدى » ، « يزيد فى الخلق ما يشاء » ، « يبسط الرزق لمن يشاء » ، وهذه هى الرحمة التى هو بها رحيم ، على هاتين الرحمتين يقوم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ركن النبوّات فهو رحمة عامة للمرسل إليهم ، ورحمة خاصة للمرسلين ، ومن اهتدى بهديهم . وهذا هو الواسطة بين المبدأ والمعاد . . . « مالك يوم الدين » إليه وحده ترجع الأمور ، وبيده تقرير المصير الأخير ، يقف الخلق جميعاً بين يديه مسئولين ، فيدينهم ويجزيهم بما كانوا يعملون . وهذا هو الركن الثالث والأخير ؛ ركن المعاد والجزاء .

عرفنا الآن مغزى هذه الصفات الثلاث ومواقعها فيما بينها . فلننظر إلى موقعها مما حولها ، لنرى كيف وقعت بين قضيتين ، « الحمد لله » و « إياك نعبد » فكانت تأييداً لما قبلها ، وتمهيداً لما بعدها . فمنزلتها من قضية الحمد منزلة البرهان من الدعوى ، ومنزلتها من قضية العبادة منزلة القوة المحرّكة من الحركة المطلوبة .

وفى الحق أنه إذا كان الله وحده هو الذى أعطى كل شىء خلقه ، وهو الذى كفل كل شىء وتعهده بالإمداد آناً فآناً حتى أبلغه مداه ، وإذا كان هو وحده الذى يملك خزائن الرحمة والنعمة كلها ، وهو الذى ينفق منها ، وهو الذى يضاعفها لمن يشاء ، وإذا كان هو وحده الذى بيده فصل القضاء ، وتقرير المصير ، فأى شىء أحق منه بنعوت الجمال والجلال ؟ بل أى شىء غيره يستحق هذا الثناء والإجلال ؟ الحمد والثناء كله حقٌّ مستحق خالصاً مخلصاً لله . . . تلك إذن قضية معها برهانها .

هذا البرهان الاستقرائى ، الذى يستقصى مظاهر العظمة والرحمة كلها فى الأزمنة الثلاثة : الماضى والحاضر والمستقبل ، فيحصرها فى الله ، هو فى الوقت نفسه قوة دافعة تأخذ بأقطار نفسك وتوجهك إلى غاية معينة عملية ، فإن نظرة إلى ماضيك وقد أتى عليك حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً فتعهّدك الخلاّق فى مختلف أطوارك حتى بلغت أشدك وأصبحت سميعاً بصيراً خصيماً مبيناً ، مستأصلا لخلافة الأرض ، لا بد أن تتقاضاك حقّ الاعتراف له بالفضل والجميل ، قياماً بواجب الرضاء ، ونظرة إلى حاضرك وإلى مستقبلك القريب وأنت تتقلب كل آن فى رحمته ، وتطمع كل آن فى المزيد من نعمته ، لا شك تثير فيك نحوه باعثة الحب والرجاء ، ونظرة إلى مستقبلك البعيد وأنت واقف أمامه فى ساحة القضاء ، وقد علق مصيرك فى كفتى ميزانه ، لا بد أن تنفث فى روعك مزيجاً من الرغبة والرهبة والاستحياء .

ماذا يكون موقفك إذن من هذه الحقيقة المحيطة الغامرة ، وأنت كلما التفت إلى أمسك أو إلى يومك أو إلى غدك لم ترإلا يد جلالها أو يد جمالها ؟ !

النتيجة الطبعية التى لا تستطيع دفعها عن نفسك بعد هذه المقدمات الثلاث ، هى أن يضمحل فى عينك كل ما ترى فى الوجود من مظاهر زائفة ، وظواهر زائلة ، وأن ترتفع فوق العالم كله بهامتك ، وأن تتحول كل رغبتك ورهبتك إلى هذا المنبع الأول والوحيد لكل قوة ورحمة . وهنالك لا يسعك إلا أن ينطلق لسانك فى حب خاشع قائلا : أيها الحق الجامع المانع ! لك كلى ، لك صلاتى ونسكى ، ولك محياى ومماتى إياك أعبد ، ولك وحدك أركع وأسجد . على أنك لو كنت أوسع أفقاً ، وأيقظ قلباً ، لوجدت نفسك لست وحيداً فى هذا الموقف ، ولرأيت العالم كله حولك راكعاً ساجداً أمام هذه العظمة الباهرة . لا تقل إذن : إياك أعبد ، ولكن قل : « إياك نعبد» وهذه هى النتيجة الحقيقية التى أعلنها القرآن الحكيم : « إياك نعبد . وإياك نستعين» ، لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك . ! !

— ماذا أقول ؟ لا نستعين إلا بك ! إنى لأكاد أسمع من يهمس فى أذنى همساً يقول لى : أما « إياك نعبد » فقد فقهناها ، وأما «إياك نستعين » ففى النفس منها شىء ، إذ من ذا الذى يطيق هذا الاستغناء الكلى عن معونة الخلق ؟ أليس الناس كلهم يعين بعضهم بعضاً ، ويستعين بعضهم ببعض ؟ أليس التعاون هو أساس الحياة ؟ أليس القرآن نفسه يقول : « وتعاونوا

على البر والتقوى » .

— بلى أنا أستعين بك ، وأنت تستعين بى ، ولكننا كأمة ، والناس ، والعالم أجمع ، بمن نستعين وراء طاقاتنا المحدودة ، وحيلنا المعدودة ؟ ثم إنى حين أستعين بك وتستعين بى ، فمن ذا الذى يبعث الباعثة فى قلبك لمعونتى وفى قلبى لمعونتك ؟ ومن ذا ييسر لى ولك وسائل هذه المعونة ، ومن ذا الذى ينجح هذه المعونة ويؤتيها ثمرتها ؟ الله وحده فى الحقيقة وفى النهاية هو المستعان .

« إياك نعبد ، وإياك نستعين » باجتماع هاتين الكلمتين بطل الشرك كله : شرك العبادة لغير الله ، وشرك الاستعانة والاستشفاع بما لم يأذن به الله . وباجتماع هاتين الكلمتين بطلت العقائد المتطرفة كلها : بطلت عقيدة الجبر المحض ، الذى ينكر قدرتنا ومسئوليتنا ، وبطلت عقيدة الاختيار المحض ، الذى يدعى الاستغناء عن معونة ربنا . فنحن نعمل ونتوكل ، نعبد ونستعين .

نعبد أولا . . . ونستعين ثانياً . . . نؤدى واجبنا ، ثم نطالب بحقوقنا . . . ألا فليستمع أولئك الذين لا يفتأون يطالبون بحقوقهم ، ولا يبدأون بأداء واجباتهم . . . إنهم لم يتأدبوا بأدب القرآن . . . ألا فليصححوا موقفهم من فاتحة الكتاب ، التى يردّدونها فى صلاتهم *كل يوم تسع عشرة مرة على الأقل* .

* * *

هكذا عرّفنا الله بصنيعه فى الآفاق وفى أنفسنا ، عرفناه فيما صنع ، وفيما يصنع وفيما سوف يصنع ، عرفناه بعقولنا وقلوبنا ، ثم توجهنا إليه بعزائمنا ، وبرغائبنا .

هذا الجانب الإلهى نظريه وعمليه ، يمثل نصف المهمة القرآنية ، وقد رأينا كيف جمعته سورة الفاتحة فى شطرها الأول .

غير أن الإنسان ليس كائناً روحيًّا محضاً ، حتى تكون كل رسالته فى الحياة أن يتأمل فى صنع الله ، وأن يمتلئ إعجاباً به ، إنه كائن مزدوج : عبد لله ، وسيد للكون ، إنه خليفة فى الأرض ، مسئول عن عمله فى خلافته ، كما هو مسئول عن موقف عبوديته . الله يخلق ويصنع ، والإنسان يعمل ويكتسب : حياته الطبيعية تتقاضاه أن يعمل ، وحياته النفسية تتقاضاه أن يعمل ، وحياته فى أسرته وفى بيئته وفى أمته وفى الأسرة الإنسانية وفى علاقته الروحية ، كل هذه جميعاً تتقاضاه أن يعمل .

فلننتقل إلى هذا الجانب الإنسانى ، إلى عمل الإنسان . هو جانب يتألف كذلك من عنصرين : عنصر نظرى تعليمى ، نرى فيه نماذج الأعمال الإنسانية فى مختلف صورها ، جميلها ودميمها ، حميدها وذميمها ؛ وعنصر عملى تنفيذى ، هو صدى تلك المعرفة ، وثمرة تحريكها لعزائمنا .

ولنبدأ بالعنصر النظرى : كيف عرض القرآن علينا صور العمل الإنسانى ؟

إنه يتبع فى ذلك منهجاً مزدوجاً ، يجمع بين القيم الذاتية والقيم العرضية للأخلاق والسلوك . منهج القيم الذاتية الذى يخاطب الضمير ، يدعو إلى الفضيلة باسم الفضيلة ، مصوراً ما فيها من جمال واعتدال ، وينهى عن الرذيلة باسم الرذيلة ، مبيناً ما فيها من دنس وانحراف . ومنهج القيم العرَضية الذى يخاطب العاطفة ، يرغب *فى الفضيلة ، وينفر من الرذيلة باسم المصلحة الحقيقية* ، ويحكم النظر إلى عواقب الأمور وآثارها فى العاجل والآجل ، ويضرب لذلك الأمثال الكثيرة ، ويقص من أجل ذلك السير التاريخية فى مختلف العصور .

والعجيب من شأن سورة الفاتحة أنها على فرط إيجازها قد انتظمت المنهجين جميعاً فى كلمتين . ذلك أنها حين حببت إلينا طريق الفضيلة بينت لنا أولا قيمته الذاتية ، فوصفته بالاعتدال والاستقامة : « الصراط المستقيم » ثم بينت ما فى عاقبته من نفع وجدوى ، فوصفته بأنه الطريق الموصل إلى رضوان الله ونعمته ، وأشارت فى الوقت نفسه إلى مثله التاريخية فى سيرة أهله الذين نصّبوا أنفسهم للقدوة الحسنة « صراط الذين أنعمت

عليهم » من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . . ثم لم تكتف بذلك بل وضعت معياراً لأنواع الطرق المنحرفة فبينت أن الانحراف على ضربين ، انحراف عن قصد وعلم ، عناداً واستكباراً ، واتباعاً للهوى ، وهذا هو طريق « المغضوب عليهم » الذين رأوا سبيل الرشد فلم يتخذوه سبيلا ، ورأوا سبيل الغيّ فاتخذوه سبيلا ؛ وانحراف عن جهل وطيش ، وهذا هو طريق « الضالين » الذين لا يتوقفون عند الشك ، بل يقتفون ما ليس لهم به علم ، فيخبطون خبط عشواء ، دون تثبت ولا تبصر . لا ريب أن كلا الضربين مذموم ، وإن كان بعضهما أسوأ من بعض : العالم المنحرف مأزور ، والجاهل المنحرف غير معذور . والعالم المستقيم هو المبرور المأجور.

هذه المشارب الثلاثة نجد دائماً أمثلتها فى الناس ، لا فى الخلق والسلوك فحسب ، بل فى كل شأن من الشئون : فى الاعتقاد والرأى والتعليم والإخبار ، والفتيا ، والحكم ، والقضاء . وهكذا جاء فى الحكمة النبوية : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار ؛ فالقاضى الذى فى الجنة رجل عرف الحق فقضى به ، واللذان فى النار رجل عرف الحق فقضى بخلافه ، ورجل قضى للناس على جهل .

من استحكمت معرفته بهذا الأصل النظرى ، وتبينت له مسالك الهدى والاستقامة ، ومسارب الاعوجاج والضلالة ، ماذا يكون موقفه العملى منها ؟ .

لا ريب أن العاقل الرشيد يلتمس من هذه الطرق أقومها ، ويطلب أسلمها ، ويتوجه بعزيمته إلى أحسنها . وهذا الالتماس والطلب والتوجه هو الذى ترجمته لنا سورة الفاتحة فى كلمة واحدة : « اهدنا » اهدنا الصراط المستقيم !

وهكذا نرى السورة الكريمة قد انتظمت المقاصد القرآنية الأربعة : الجانب الإلهى نظريه وعمليه ، والجانب الإنسانى نظريه وعمليه . . . كل ذلك فى أوجز عبارة وأحكم نسق .

سورة الفاتحة إذن هى خريطة القرآن وفهرست مواده ، إنها جوهرة القرآن ونواته ولبّ لبابه . فهى بحقّ « أمّ القرآن ».

* * *

كانت هذه هى النظرة الأولى ، قارنّا فيها بين مواد الفاتحة ومواد القرآن .

وبقيت نظرة ثانية سريعة ، نقارن فيها بين أسلوب الخطاب فى الفاتحة ، وأسلوب الخطاب فى القرآن . . . ماذا نرى فى هذين الأسلوبين ؟

نرى اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف :

فسورة الفاتحة هى السورة الوحيدة ، التى وضعت أول الأمر ، لا على لسان الربوبية العليا ، ولكن على لسان البشرية المؤمنة ، تعبيراً عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى السماء ، بينما سائر السور تعبر عن الحركة المقابلة ، حركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض . وهكذا حين ننظر إلى القرآن فى جملته نراه يتمثل أمامنا فى صورة مناجاة ثنائية ، الفاتحة أحد طرفيها ، وسائر القرآن طرفها الآخر ؛ الفاتحة سؤال ، وباقى القرآن جواب ؛ الفاتحة هى طلب الهدى ، والباقى هو الهدى المطلوب .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

فلننفذ بهذه النظرة إلى نهايتها ، فإنها ستعود إلينا بحصيلة ثمينة من العبر النفيسة .

أول ما نلتقطه من هذه العبر أن القرآن (وهو دستور الإسلام) لو جاءنا بدون الفاتحة لكان دستوراً وافداً على الأمة ، طارئاً عليها ، يعرض نفسه عليها عرضاً ، أو يفرض عليها فرضاً ، أو يمنح لها منحة . . . فليكن مع ذلك حقّاً كله ، وخيراً كله ، وهدىً كله . لكنه لو لم تطلبه الأمة ، ولو لم تعلن حاجتها إليه ، لكان لها أن تستقبله كما تستقبل البضاعة المعروضة بغير طلب، وأن تقول له زاهدة فيه : لا حاجة بى إليك . أما الآن فالموقف يختلف كل الاختلاف . . . إن موقع الفاتحة هنا موقع القرار الجماعى الذى تعلن به الأمة المؤمنة

حاجتها إلى هذا الدستور وتؤكد مطالبتها به ، وإن موقع القرآن كله بعد الفاتحة هو موقع القبول والاستجابة لهذا المطلب . فما هو إلا أن أعلن المؤمنون مطلبهم هذا قائلين « اهدنا الصراط المستقيم » ، وإذا بالقرآن يزفُّ إليهم هديته وهدايته قائلا لهم : دونكم الهدى الذى تطلبونه ، فكانت أول كلمة فى القرآن بعد الفاتحة هى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » . وهكذا جاءهم على ظمأ وتعطش ، فكان أنقع لغلتهم . وكان أكرم فى نفسه وعلى الناس من أن يتعرض للمعرضين عنه ، أو أن يلزم من هم له كارهون ، وكان فوق ذلك كله أقطع لحججهم ومعاذيرهم فى إهماله ونسيانه لو أهملوه أو نسوه فيما بعد ، ذلك أنه لم يلزمهم إلا بما التزموا ، ولم يجئهم إلا بما طلبوا . وخير الدساتير ما نبع من حاجة الأمة ، وكان تحقيقاً صريحاً لمطامحها الرشيدة .

* * *

لم تكتف الأمة المؤمنة بأنها طالبت بهذا الدستور ، ولكنها اختارت وحدّدت السلطة التى تقوم بوضع هذا القانون الأساسى ، وتوجهت بخطابها إلى هذه السلطة نفسها ، ونصّت فى صلب قرارها على المؤهلات الممتازة التى كانت سبباً فى هذا الاختيار والتحديد ، فلقد طلبت أن يكون هذا التشريع من عمل المشرع الأعظم الأكرم ، المعروف بخبرته التامة فى التربية العالمية « رب العالمين » وبعطفه الشامل على مطالب الرعية « الرحمن الرحيم » ثم أعلنت فى صلب قرارها أن المسئولية النهائية لجميع السلطات التنفيذية ستكون أمام هذه السلطة التشريعية العليا : « مالك يوم الدين » .

ثم لم تكتف الأمة المؤمنة بهذا كله ، بل إنها وضعت الإطار الذى يلزم أن يقع هذا التشريع فى داخل حدوده ، ورسمت المبادئ الأساسية التى يجب أن يقوم عليها ، فطالبت بأن يكون تشريعاً لا يميل مع الهوى يمنة أو يسرة ، تشريعاً لا يقوم على فكرة المحاباة لفرد أو لطائفة أو لشعب ، ولكن يمثل العدل الصارم ، والصراط المستقيم .

وأخيراً لم تقنع فى وصف هذا التشريع بتلك الأوصاف العامة والألقاب الكلية ، بل حددت نموذجه ومثاله من الواقع التاريخى ، فطالبت بأن يكون من فصيلة التشريعات الفاضلة المعروفة التى جرّبت فائدتها ، وتحقق حسن عاقبتها ، شرعة الذين أنعم الله عليهم بالتوفيق والرشاد .

* * *

إذا نظرنا إلى الفاتحة من هذه الزاوية فإنه يحقُّ لنا أن نقول : إن القرآن إذا كان هو الدستور ، فالفاتحة هى أساس الدستور . . . . بل لو صح هذا التعبير ، لقلنا إنها دستور الدستور .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com